صفحات من تاريخ الجيش

نواح عسكرية

في عصر اسماعيل العظيم

لعبد الرحمن زكي

في الفصل السادس من كتاب القاضي كرايتس « اسماعيل المفترى عليه » تقف على شيء كثير من مطامح الخديو اسماعيل باشا وآماله التي سعى في تحقيقها الى تحرير مصر من نير السيادة التركية . ولما كان يحتمي ان يضطر الى امتشاق الحسام لتحقيق هذه الغاية اتجه بأبصاره شطر الولايات المتحدة الاميركية ليستمير منها ضباطاً لتنظيم جيشه وتدريبه

ولسنا نعلم ما الاجراءات الاولية التي اتبعها الخديو اسماعيل . والارجح انهُ في اواخر سنة ١٨٦٨ أو اوائل سنة ١٨٦٩ اتصل الخديو اسماعيل بالكولونيل « هنري موط » Henry Mott من ضباط الجيش الاميركي الاتحادي . وكان قد ادخل اولاً في خدمته كضابط بسيط لكنهُ بعد ان اختاره اسماعيل كلفهُ أنتقاء ضباط اميركيين للخدمة في الجيش المصري فأخذ يستخدم ضباطاً من كلا الفريقين المتحاربين في الحرب الاهلية الاميركية وقد وقع اختياره على الضباط الآتي بيانهم :

الجنرالات لورنج وسبلي وستون . والكولونيلات شايه لونج . كولستون . ديريك . داي . فيلد — جنيفر — كتون — لوكيت — مكيفور — ملسون — بردي — بروت — الكسندر ريتولدز — فرنك ريتولدز — ريد — ريت — روجرس — سافيدج — آلين — وارد

ثلاثة ضباط برتبة لفتننت كولونيل . وثمانية برتبة ماجور . وثلاثة برتبة كابتن . وثلاثة جراحين

وقبل قدوم هؤلاء الضباط الى مصر وقعوا عقوداً مع الحكومة المصرية التي كان يمثلها « موط » (ان يشهروا الحرب على اي عدو للفريق الاول — كائناً من كان — وان يواصلوا تلك الحرب بكل شدة) ما عدا حمل السلاح في وجه الولايات المتحدة . وقد ذكر الكولونيل شايه لونج انهُ قيل له ولرفقائه سراً ان الغرض الحقيقي لمهمتهم كان تنظيم الجيش المصري لقيام

بعمل حاسم يضمن لمصر استقلالها ويزيل عنها النير التركي [1] واليك ما جاء في مذكراته عن اول مقابلة كانت بينهُ وبين اسماعيل باشا . قال له هذا :

« انني اعتمد على حكمكم واخلاصكم ومراعاتكم لشروط الكتمان لتعاونوا على تحقيق استقلال مصر . ومتى تم ذلك وسيتم باذن الله — فسأكافئكم أعظم مكافأة » [2]

﴿ هيئة اركان حرب الجيش المصري ﴾ ولعل اهم يوم في تاريخ خدمة الضباط الاميركيين في الجيش المصري هو يوم ٣٠ مارس سنة ١٨٧٠ ففي ذلك اليوم عين الجنرال ستون رئيساً لاركان حرب الجيش المصري . وكان هذا التعيين نذيراً بانتهاء السيادة الفرنسية في الجيش بعد أن كانت هيئة اركان حربه معظمها ان لم يكن كلها من الضباط الفرنسيين . فاننا نعلم جيداً ان عقب حرب القرم (١٨٥٣—١٨٥٥) وعوت القائد سليمان باشا الفرنسي [3] رئيس هيئة اركان حرب الجيش المصري في ايام محمد علي الكبير والبطل ابراهيم وعباس باشا الاول وسعيد اندثرت هذه الهيئة او ظلت اسماً على غير مسمى حتى بعثها اسماعيل باشا

لما بدأ الجنرال ستون عمله في ربيع عام ١٨٧٠ وقصد نظارة الحربية لتقلد منصبه الجديد لم يجد فيها « هيئة » كالتي توقعها وعثر على اسم كولونيل فرنسي كان مسافراً الى انكلترا لمشترى ذخائر واسلحة ولكنهُ لم يعد من مهمته الا حوالي عام ١٨٨٠ . ولم يجد الجنرال ستون في نظارة الحربية خرائط او كتباً عسكرية او ملفات هامة للابحاث الحربية كما كان ينتظر ولم يكن للجيش المصري رئيس هيئة أركان الحرب بعد وفاة قائده القديم سليمان باشا الفرنسي الذي كان قد أوصى بارسال بعض نجباء الطلبة الى فرنسا لتلقي الدروس العسكرية العالية . فلما عادوا ضمهم تحت رآسته الى هيئة اركان الحرب التي ألفها على الاسلوب الفرنسي وبوفاته لم يخلفهُ أحد في منصبه حتى ١٨٧٠ . ولم يكن من افراد تلك البعثة العسكرية غير شريف باشا الذي كان يشغل منصب رئيس النظار وقائمقام الخديو اثناء غيابه في الاستانة — ومراد باشا حلمي الذي وصل الى رتبة الفريق وصار فيما بعد ناظراً للحقانية في عهد المغفور له توفيق باشا . وعلي باشا ابراهيم ناظر المعارف فيما بعد وغيرهم من اعضاء البعثة الرابعة (١٨٤٤) [4] فكان من الطبيعي ان يؤلف الجنرال ستون

(١) كتاب « حياتي في القارات الاربع » لمؤلفه الكولونيل شايبه لوفج ج ١ ص ١٧

(٢) راجع كتاب شايبه لوفج ج ١ ص ٣٢ الذي سبق ذكره

(٣) هو الكولونيل سيف Sève الفرنسي الجد الاكبر لاسرة جلالة الملكة الوالدة وكانت وفاته في ١٢ مارس عام ١٨٦٠ بمرض الروماتزم وضريحه اليوم بجانب قصره في مصر القديمة — انظر كتاب Soliman Pacha لمؤلفه Aimé Vingtrinier ص ٨٣ .

(٤) راجع كتاب البعثات العلمية في عهد محمد علي وعباس الاول وسعيد للمرحوم الامير الجليل عمر طوسون باشا ص ١٧٢ — ٣٧٤

هيئة جديدة وبدأ عملهُ بعد ان اكتسب ثقة الخديو وتأسَّف مساعيهُ واعداد ضباط اكفاء يتمُّ تعليمهم الجديدة وتنظيم الجيش للخدمة بارشادات هيئة أركان الحرب وكان أول ما أوصى به الجنرال ستون تعليم صفوف الجيش

﴿ تعليم ضباط الصف والجنود ﴾ واستصدر أمراً من الخديو بان لا يرقى أحد أفراد الجيش الى درجة الأ وهو ماشٍ الاَّ اذا كان ملمًّا بالقراءة والكتابة ولكي يمكن ترقية جميع الجنود صدر أمر عالٍ بانشاء مدرسة في كل أورطة لتعليم ضباط الصف والجنود مدة ساعة ونصف ساعة على الاقل يوميًّا — ونظمت مدرسة لتعليم ضباط الصف لكي تمد الجيش بما يلزمهُ واستطاع بعد مدة قصيرة تعليم ١٥٠٠ من الجاويشية والأوباشية القراءة والكتابة ومبادىء الحساب ومبادىء أعمال مسك الدفاتر . وألف بعونة هؤلاء الرجال أورطتين نموذجيتين للجيش ولما انتهى تعليمهم أعيدوا الى بلوكاتهم الاصلية لتلقين ما تدربوا عليهِ ثم كان يستبدلهم بغيرهم لتدريبهم وهكذا . وكانت تلك المدرسة ملحقة بالتكنات المخصصة لنظارة الحربية بالقلعة ليتردد عليها « ستون باشا » لمراقبتها باستمرار

ظهرت نتائج تلك النظم وأينعت ثمارها في وقت قصير فلقد كان ثلث عدد ضباط الجيش حتى عام ١٨٧٠ لا يعرفون القراءة والكتابة ولم يكن عدد الصف والجنود الملمين بالقراءة والكتابة يزيد عن العُشر فلما كانت سنة ١٨٧٣ أصبح أكثر من سبعين في المائة من رجال الصف قد تعلموا القراءة والكتابة واصبحوا قادرين على التعبير عن أفكارهم كتابة . ولم يقتصر أمر تعليم الجيش على الجند فقط فان « ستون باشا » اقترح على اسماعيل باشا فتح مدرسة أخرى لتعليم أبناء الجند كحق لمن يدافع عن وطنهِ بحياته وكواجب على الامة تؤديهِ نحو أبنائها الجند . فلقي هذا الاقتراح رعاية الخديو وتشجيعه وأمر بانشاء مدرسة في كل مركز فرقة من فرق الجيش وأمر بالعناية بالأطفال وتوزيع الملابس والاغذية عليهم على ان يعودوا الى أمهاتهم في كل مساء . أما الجنود الذين استبقوا أسرهم في بلدانهم بعيدين عن المحطات العسكرية فكانت تخصص لابنائهم أمكنة للمبيت فيها وتصرف لهم الاطعمة في تلك المدارس بدون مقابل

وقد أثمرت تلك المدارس في سنين قلائل فنال أكثر من ٢٨٠٠ طفل قسطاً متوسطاً من التعليم بدلاً من اهمالهم في قراهم . وكان أكثر معلمي تلك المدارس من ضباط الجيش الذين انتخبوا من وحداتهم للقيام بهذا العمل الجديد وانتخب منهم بعض الجنود لاعمال الخدمة في المعسكرات فلم تتحمل ميزانية الجيش اعتمادات كبيرة لحفظ تلك المنشآت الجديدة التي لم تكلفها أكثر من ٢٥٠٠٠ جنيه في العام مقابل الخدمة الهامة التي أسدتها الى أبناء الجنود . وكان مما يؤسف لهُ كثيراً ان أغلقت هذه المدارس في عام ١٨٧٨ بتوصية لجنة مراقبة المالية بحجة

الاقتصاد في أبواب الميزانية وذلك لفائدة جملة الاسهم من الاجانب

﴿مدرسة أركان الحرب﴾ وكان من تعليمات سنون باشا انشاء مدرسة لاركان الحرب . انتخب لها عشرين طالباً من بابي طلبة المدارس العالية . وكان لتلك المدرسة الفضل الاول في اخراج طائفة مختارة من شبان الضباط المتعلمين بين الاعوام ١٨٧٣—١٨٧٨ فوزعهم على الاقسام العسكرية المختلفة ومكاتب القواد ورؤساء الضباط الذين استقدمهم للعمل معه من أميركا أمثال الجنرال لورنج وكولونيل داي والماجور لونج وجريفز وغيرهم . كما انهُ انتخب فرقاً من نجباء الضباط في سلاحي المدفعية والخيالة ممن يجيدون احدى اللغتين الانجليزية او الفرنسية للعمل مع هيئة أركان حرب الرآسة بأشراف الجنرال لورنج[1] صاحب الفضل في تدريبهم على الاعمال العسكرية الفنية العالية

﴿تنظيم هيئة أركان الحرب﴾ وبالتدريج أنشئت الأقسام المختلفة لهيئة أركان الحرب العامة في نظارة الجهادية ووضع كل قسم تحت رآسة ضابط أميركي . وكان كلما تخرج عدد من الضباط المصريين من مدرسة أركان الحرب عينوا للعمل في تلك الاقسام برتبة الملازم الاول . وبتقدمهم المناصب الجديدة بدأوا التمرين على الاعمال الفنية الخاصة . وأنشئت مكتبة عسكرية ضمت مختلف المؤلفات العسكرية المشهورة في اشهر اللغات واشترك في عدد كبير من المجلات الحربية الاميركية والانجليزية والفرنسية والالمانية والروسية . وكانت هذه المكتبة تحتوي على أربعة آلاف مجلد على الاقل لما أنشئت . وفي السنة الاولى من انشاء تلك الهيئة قام عدد كبير من الضباط المصريين باستكشاف المناطق الافريقية المجهولة ومنابع النيل ورسموا الخرائط التفصيلية لها . وتقدمت أعمالهم طبعاً بمد خط الاستواء . وفي الاعوام ١٨٧٤ و ١٨٧٥ و ١٨٧٦ امتدت تلك الاستكشافات الى كوردفان ودارفور والى بحيرات خط الاستواء كما أمتدت الى الجنوب الشرقي نحو بربره وهرر وجردفون ونهر جوبا (بلاد الصومال) ومما لاجدال فيه ان ضباط هيئة اركان الحرب المصريين استكشفوا فيما بين عامي ١٨٧١ و ١٨٧٨ ويشوا على خرائطهم مساحات شاسعة من المناطق الافريقية التي ظلت مجهولة حتى أواسط القرن التاسع عشر وفاق مجهودهم ما قام به المستكشفون الاجانب في القارة السوداء ومعظم ابحاث هؤلاء الضباط لا تزال من أهم المراجع الجغرافية[2] وليس معنى ذلك ان نتجاهل مستكشفات ستانلي وصمويل بيكر وجرانت وسبيك ولفنجستون وغيرهم من رجال الاستكشافات الافريقية الخاصة بنهر النيل ومنطقة البحيرات والانهر الاخرى

﴿المستكشفون العسكريون﴾ ولقد برهن الضباط المصريون الذين تخرجوا من مدرسة اركان

(١) هو الفريق لورنج باشا الذي عرف بأبي ذراع فقد كانت ذراعه مقطوعة واستدعي للخدمة في الجيش المصري في أوائل ديسمبر عام ١٨٧٥ لرآسة هيئة اركان حرب الحملة المصرية في بلاد الحبشة

(٢) نشر جانب كبير من الابحاث الجغرافية للضباط المصريين في جيش اسماعيل باشا بمجلات اركان الحرب العسكرية والمجلة الجغرافية الخاصة بالجمعية الجغرافية الملكية ومؤلفات الضباط الاميركيين أفراد هذه البعثة وأهمها Loring—A. Confederate Soldier in Egypt—1884

الحرب على كفاءتهم الممتازة في الحملة المصرية بالحبشة وفي حروب الدولة العثمانية ضد بلغاريا والصرب . وقد استشهد ستة في المائة من عددهم في ميادين القتال وسقط اثنان في المائة في الاستكشافات الجغرافية السودانية من الامراض الفتاكة ومعظم من بقي منهم انتفع بمواهبهم واجتذبتهم المناصب الكبيرة اليها كالصالح الفنية والمديريات واقاليم السودان . وكانت جهودهم في استكشاف البقاع الاستوائية والسودان ورسم الخرائط وتحديد الحدود مثالاً يقتدى به . فانه لما تم فتح دارفور (١٨٤٧ م) اصدر الخديو امراً الى الجنرال ستون بتجهيز حملة عظيمة لاكتشاف اراضيها واراضي كوردفان فعين الجنرال فرقتين من الضباط جعل الاولى تحت رآسة الكولونيل كولستون (Colston) وسمه الصاغ أحمد حمدي والملازمون عمر رشدي ومحمد ماهر ويوسف حلمي وخليل فوزي والدكتور الطبيعي العالم بفرند Pfund [1] ثم تخلف الماجور بروت Prout قيادة الحملة بسبب مرض الكولونيل المذكور وقام اعضاؤها بالعمل ثلاث سنوات في الاستكشاف ورسم خريطة كوردفان بالتفصيل وخريطة جبل مرّه بدارفور والطرق الواصلة اليها وخريطة لجهات مكركة ونيام نيام وملحقاتها وجهات خط الاستواء . وقد عثرنا على صورة للتقرير الذي رفعهُ الجنرال ستون الى الخديو اسماعيل باشا في ١٦ أكتوبر ١٨٧٦ مبيناً فيه خلاصة النتائج الجغرافية والعلمية التي تمت بمعرفة ضباط حملات الاستكشاف في أواسط افريقيا خلال الاعوام ١٨٧٤ و ١٨٧٥ و ١٨٧٦ فاذا هي تشتمل على ما لا يقل عن سبعة وعشرين كشفاً جديداً أهمها [2] :

١ — استكشاف دقيق للنيل الابيض من غندوكرو الى بحيرة البرت

٢ — استكشاف النيل الابيض من الخرطوم الى غندوكرو وتعيين خمسة مواقع بالارصاد الفلكية

٣ — استكشاف بحيرة البرت عام ١٨٧٦ بمعونة جيسي الايطالي

٤ — تحقيق مجرى نهر النيل بين بحيرة فكتوريا ومرولي واستكشاف بحيرة ابراهيم

٥ — استكشاف واتمام خريطة الطريق بين الدبية وماطول وبين الدبة وأوبال

٦ — استكشاف مديرية كوردفان وبلغت اطوال خطوط الاستكشاف ستة آلاف كيلو متر وقد وضع الماجور بروت تقريراً ضافياً لهذا العمل

٧ — استكشاف الطريق بين دنقلة على النيل والفاشر عاصمة دارفور برآسة الكولونيل بوردي والقنصل كولونيل ماسون وخمسة ضباط مصريين

٨ — استكشاف مديرية دارفور وجزء من منطقة دار فرتيت الى حفرة ديرالنحاس وشيكا الى الجنوب وعمل خريطة لها وتقرير ضاف

(١) راجع كتاب حقائق الاخبار عن دول البحار — لاسماعيل سرهنك باشا — الجزء الثاني ص ٣٣٨

(٢) راجع كتاب The Khedive's Egypt لمؤلفه Edwin de Leon الطبعة الثالثة عام ١٨٧٧ ص ٤٢٩ و ٤٣٠ و ٤٣١ و ٤٣٢

٩ — استكشافات جيولوجية ومعدنية للمنطقة الواقعة بين الرودسية وقنا على النيل والمنطقة الساحلية للبحر الاحمر بالقرب من القصير ورسم خريطة جيولوجية بالتفصيلات وقام بالجزء الاكبر من هذا العمل المستر ميشيل بمساعدة ضابط مصري من هيئة اركان الحرب والمسيو اميليانو الايطالي والاخصائي في المعادن

١٠ — استكشاف المنطقة الواقعة جنوبي غرب زيلع بالقرب من تاجورا طوبوغرافيًا وجيولوجيًا ورسم خريطة تفصيلية لها

١١ — استكشاف ومسح المنطقة بين بربرة وجبل دوبار ورسم خريطة لها وقد قام بهذا العمل اليوزباشي عبد الرزاق نظمي وبعض الضباط المصريين

١٢ — استكشاف واتمام الخريطة للطريق الصحراوي بين اسيوط وعين الاجية . وقام بهذا العمل الماجور ديوهولي Diuholy يعاونهُ ضابط مصري من هيئة اركان الحرب

وغير ذلك من الاعمال الفنية التي تسجل لهذا الجيل من العسكريين التابعين . وكان الضباط اثناء قيامهم بتلك المهام النيلة يعتمدون على مرتباتهم العسكرية الفنية ولا تمنح غيرهم من المستكشفين الاجانب بما ارتاح طول حياتهم . لكن كان من وراء اعمال هؤلاء الضباط الوصول ان وضع العلم المصري على المناطق الاستوائية الى ما وراء بحيرة فكتوريا نيانزا والصومال ومناطق البحيرات وغيرها من المناطق الساحلية التي كانت تابعة للدولة المصرية في وقت من الاوقات

﴿ الثقافة العسكرية ﴾ وفي سنة ١٨٧٣ وافق سمو الخديو اسماعيل على اقتراح ستون باشا بانشاء مطبعة عسكرية يكون مقرها في نظارة الحربية فقامت في باديء الامر بطبع المنشورات والتقارير ثم تقدم عملها واتجه الى اخراج الخرائط المتقنة الملونة والكتب . ومما يؤسف لهُ ان هذه المطبعة كانت في مقدمة ما اتجهت اليهِ لجنة مراقبة المالية عام ١٨٧٨ فأوصت بالقضاء على آلة الطباعة عاشرة العلم والحضارة . ومع نتيجة هذا الحكم القاسي ظلت آلة الطباعة تقوم بمصروفاتها معتمدة على ايرادها مما كانت تخرجهُ من المؤلفات وبيعها حتى أُلغيت نهائيًا عام ١٨٨٢ وتحولت آلاتها الى المطبعة الاهلية . وبجانب المطبعة العسكرية التي كانت تخرج صحيفتين حربيتين هما « جريدة اركان حرب الجيش المصري » والاخرى « الجريدة العسكرية المصرية » انشئت مكتبة تحوي كتبًا قيمة في الفنون الحربية وألحق بها متحف حربي للاسلحة والتحف والتذكارات الخاصة بالجيش [1] وكانت المجلة الاولى تنشر مباحث قيمة للجنرال ستون باشا ولمحمد مختار افندي (باشا فيما بعد) وحماد بك عبد العاطي المدرس بالمدارس الحربية وعبد الرزاق نظمي (بك) وعبد الله بك فوزي من ضباط اركان الحرب

(١) راجع كتاب عصر اسماعيل للاستاذ المؤرخ عبد الرحمن بك الرافعي الجزء الاول صحيفة ١٨٩ و ١٩٠

﴿ جيش اسماعيل ﴾ والآن وقد انتهينا من رسم صورة عامة لأهم عناصر الجيش المصري في ايام اسماعيل وهيئة اركان حربه فلنذكر اهم الوحدات التي كان يتكون منها الجيش نقلاً عن حقائق الاخبار

الوحدات العسكرية	قواتها
١ — فرقة حرس مركبة من ٤ آلايات مشاة بقيادة الفريق راشد باشا حسني	١٦٠٠٠ جندي و ٤٢٧ ضابطاً
٢ — الفرقة الاولى مركبة من ٤ آلايات مشاة بقيادة الفريق عثمان باشا رفقي	١٦٠٠٠ جندي و ٤٢٧ ضابطاً
٣ — الفرقة الثانية بقيادة اسماعيل باشا كامل	١٦٠٠٠ جندي و ٤٢٧ ضابطاً
٤ — الفرقة الثالثة بقيادة محمد باشا خسرو	١٦٠٠٠ جندي و ٤٢٧ ضابطاً
٥ — اربعة آلايات خيالة بقيادة ابراهيم باشا الفريق	٤٠٠٠ جندي و ١٧٩ ضابطاً
٦ — اربعة آلايات مدفعية برية بقيادة علي باشا رضا	٦٠٠٠ جندي و ٢٣٣ ضابطاً
٧ — ثلاثة آلايات سواحل بقيادة خورشيد باشا	٣٤٠٠ جندي و ١٥٩ ضابطاً
٨ — اورطتان من المهندسين بقيادة الامير الاي احمد ثابت	١٨٠٠ جندي و ٥٣ ضابطاً
٩ — هيئة اركان الحرب بقيادة الجنرال ستون باشا	٣٠٠ جندي و ٦٩ ضابطاً
١٠ — قلم مهندسي الحربية بقيادة المرحلي باشا	٨٠ جنديًّا و ٤٠ ضابطاً
١١ — بلوك الصنايعية : بنو باشا ———	٤٥٠ جنديًّا و ١٤ ضابطاً
١٢ — ورشة الترزية : ابراهيم بك شوقي	٦٠٠ جندي و ٢٩ ضابطاً
١٣ — ورشة الذخيرة : حسين باشا الطوبجي	٣٥٠ جنديًّا و ٢٦ ضابطاً
١٤ — مستحفظين بيادة وسواري	٣٠٠٠ جندي و ٧٧ ضابطاً
١٥ — بوليس حربي	٥٠٠ جندي و ٢٠ ضابطاً
١٦ — مدرسة اركان الحرب	١٠٠ طالب و ٦ ضباط
١٧ — مدرسة المهندسين الطوبجية	٢٥ طالباً و ٢ ضباط
١٨ — مدرسة الخيالة	١٢٥ طالباً و ٥ ضباط
١٩ — مدرسة المدفعية	١٠٠ طالب و ٤ ضباط
٢٠ — مدرسة الطب البيطري	٤٠ طالباً و ١ ضابط
٢١ — مدرسة المشاة	٤٠٠ طالب و ٨ ضباط
٢٢ — مدرسة الحطرية	٣٠٠ طالب و ١٤ ضابطاً
٢٣ — مدرسة اولاد الجنود	٨٠٠ طالب و ٢٠ ضابطاً